Recruitment of the hadith of the Prophet in the poetry of Abu Ishaq al-Ilbiri

Dr. Salman Hattab [1]
Dr. Rodan Mari [2]
Ghousen Kababah [3]

(Received 29 / 4 / 2019. Accepted 7 / 7 / 2019)

□ ABSTRACT □

This research attempts to shed light on the use of the Prophet's Hadith in the poetry of Abu Ishaq Al- Ilbiri, and on the sources of quotation and the disclosure of the religious influence in his poetry, and the implications resulting from this recruitment, and the statement of its role in the service of the poet's experience of asceticism and its ability to excite and influence. In addition to the intended of the poet, the Hadith has represented a rich material contributed to the enrichment of the poetic text, and help him to convey the meaning he wants.

Key Words: Recruitment, Religious Heritage, Hadith of the Prophe, Poems of asceticism.

[1] - Assistant Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.
2-- Assistant Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.
3-Postgraduate student, , Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

استلهام الحديث النبويّ في شعر أبي إسحاق الإلبيري

الدكتور سلمان حطاب[1]
الدكتور رودان مرعي[2]
غصن كبابة[3]

(تاريخ الإيداع 29 / 4 / 2019. قبل للنشر في 7 / 7 / 2019)

□ ملخّص □

يحاول هذا البحث تسليط الضوء على استلهام الحديث النبوي في شعر أبي إسحاق الإلبيري، فقد أسهم الحديث النبوي في إثراء نصّه الشعري، وتجسيد الرؤى العميقة للواقع الذي يحياه الشاعر، كونه يعدّ من أهمّ الروافد الفكرية والثقافية لدى الشاعر الزاهد، فقد وجد فيه الإلبيري نبعاً غنيّاً يمكن أن يسعفه في التعبير عن المعنى الذي يريد في تجربته الشعرية، فسعى إلى استدعائه وتمثّله في تجربته بشكلٍ فنيّ ومؤثّر في قضايا واقعه الذي يعيشه ويحياه.

الكلمات المفتاحية: الاستلهام، الموروث الديني، الحديث النبوي الشريف، الشعر الزهدي

[1] –أستاذ مساعد– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية
[2] –مدرّس– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية
[3] –طالبة دراسات عليا (دكتوراه)– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية

مقدمة:

شكّل النص الديني (القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف) بفضل فصاحته، وعلوّ بيانه رافداً أساسياً من روافد ثقافة الشعراء الأندلسيين يستلهمونه ويفيدون منه، وكان حضور النّص الدينيّ فيما يقولون شاهداً حيّاً على عمق صلتهم بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتأثرهم بهما.

وقد أولى الدارسون توظيف النّص القرآني عنايتهم، وأفاضوا في الحديث عنه، فيما يكتبون من أبحاث أدبية نقدية في دراسة النّصوص الشعريّة الأندلسيّة، أمّا الحديث النبوي فقد حظي باهتمام أقلّ بالقياس مع النص القرآني، من هنا جاءت أهمية اختياري لهذا البحث ليكشف عن مواقع استدعاء الحديث النّبويّ في ديوان الإلبيري، وبيان قدرته على إعادة ما استوحاه من نصوص غائبة، في صور جديدة لها تأثيرها العميق في ذهن المخاطب ووجدانه، حيث وجد الإلبيري في هذا الرافد منبعاً غنيّاً بالإمكانات الفنّية التي تسعفه في إيصال المعنى الذي يريد.

والاستلهام هو "أن ننتقي من التراث جملة من المواقف والمفاهيم التي تصلح لأن تسهم في تدبير حياتنا وأمورنا ونجعلها نمطاً سلوكياً أو ذهنياً لنا في تفكيرنا وفي فعلنا"[1].

وهو عملية فنيّة تقوم على إعادة خلق المادة (المستلهمة) خلقاً جديداً إذ تصبح – هذه المادة– أصلاً في بناء العمل الفني؛ إذ يقوم الشاعر بصهر المادة المنتخَبة وإذابتها فتُدغم في بنائه الشعري، ويصبح النسيج كلياً فيتعذّر الفصل بينهما.

أهمية البحث وأهدافه:

يحاول البحث توضيح أبعاد استلهام واستحضار الحديث النبوي في شعر الإلبيري، وتوظيف الشاعر له توظيفاً موفّقا، مشكّلاً بذلك التكوين الثقافي له، ومُضيفاً على نصوصه الشعرية ثراءً، وقدرة على التواصل مع القيم الكبرى في تراثنا الدّيني والفكّري.

منهجية البحث:

اعتمدتُ في هذه الدراسة منهجاً استقرائياً وصفياً تارة، وتحليلياً يعتمد النصوص الشعرية تارة أخرى، محاولاً تبيّن توظيف الحديث النبوي في تلك النصوص، وبيان دورها في تأدية المعنى الذي أراد الشاعر التعبير عنه.

تمهيد:

إنّ أدب كلّ أمّة هو ابن بيئتها، يتأثر بها، ويؤثّر فيها، ويستمدّ عناصر نشأته ووجوده من طبيعة أرضها، وأحداث تاريخها، وحياة مجتمعها. وقد عاش الأدب العربي في الأندلس نحو ثمانية قرون، وتأثّر بالبيئة التي عاش فيها، وأثّر في بيئته، وفيما جاورها من البيئات الأخرى ومن هنا وجبت دراسة هذا الأدب، والعناية بفنونه المتنوّعة، وأغراضه المتعدّدة.

لقد واكب الشعر الأندلسي، الشعر في المشرق، ونافسه في موضوعات الشعر الأندلسيّ ودراستها، في محاولة لاكتشاف كنوز هذا الشعر، وإظهارها إلى الوجود.

---

[1] –جدعان، فهمي، نظرية التراث، دار الشرق، عمان، ط1، 1985، ص26.

ولمّا كان النظر في الظواهر الشعريّة في أيّ عصر من العصور هو السبيل الأصوب لدراسة حال الشعر، انطلاقاً من أنَّ الظاهرة في اللغة هي "أمر ينجم بين النّاس"، فهي مرهونة بظروف وعوامل ومؤثّرات.

وقد اهتم الشعراء الأندلسيون بالتراث اهتماماً بالغاً وراحوا ينهلون منه، ويستقون من معينه حتى صار ملمحاً بارزاً في أشعارهم، والدّارس المتعمّق للشعر الأندلسي يلحظ بشكل جليّ أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف يشكلان مصدراً أساسيّاً من المصادر التي عكف عليها الشعراء الأندلسيون، ورافداً مهمّاً في ثقافتهم، بقصد تمثّل مشكلات مجتمعهم وقضاياه، فضلاً عن التعبير عن نوازعهم ورغباتهم وتطلّعاتهم.

والدّارس المتعمّق لشعر الزهد الأندلسي يلحظ بشكل جليّ أنّ القرآن الكريم والحديث الشريف كان منهلاً أساسياً من المناهل التي عكف عليها الشعراء الأندلسيون، ورافداً مهمّاً في ثقافتهم، لأنّ الشعر الأندلسي (لا ينفصل عن التقاليد الموروثة في الشعر العربي عامة، فهو يجري في الاتجاه نفسه ويشيع فيه هذا التيار الذي يصل بين الماضي والحاضر)[1].

نظرة إلى حياة الشاعر وأحداث عصره:

شهدت الأندلس في مطلع القرن الخامس الهجري اضطراباً سياسياً واضحاً، أدّى إلى انقسام الدولة الواحدة إلى دويلات متعدّدة، وفي فورة الفتن المضطربة برز لون من الشّعر كان له شأن في هذه المدّة وهو الدّعوة إلى الزّهد في ملذّات الدّنيا التي جذبت الأفئدة وغيّرت السلوك الإنساني؛ كردّ فعل للحياة اللاهية الماجنة التي عرفها المجتمع الأندلسي في هذا القرن، فازدهر شعر الزهد في الأندلس، ونظمه الشعراء إمّا بدافع واقعهم السياسي والاجتماعي، أو بدافع دينيّ، حتى صار لدى بعضهم مذهباً أدبياً أخلاقياً معاً[2]، كان منهم الشاعر الزاهد الإلبيري، الذي انقطع للقول في هذا الغرض حتى صار لديه ديوان كلّه في الزهد والوعظ، كما جعل أشعاره وسيلةً لبثّ آرائه في نقد المجتمع، والتعرض لبعض القضايا السياسية والاجتماعية، فمن هو هذا الشاعر؟

هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبي الزاهد، أصله من حصن العقاب، من قبيلة تجيب العربية[3]

وكان قد اشتهر في غرناطة اسمه، وشاع عِلمه، وارتسم بالصلاح، وكان ينكر على ملكها كونَهُ استوزر ابن نَغْرِلَّه اليهودي وعلى أهل غرناطة انقيادَهم له، فسعى في نفيه إلى إلبيرة[4].

اشتهر بالنسبة إلى مدينة إلبيرة، فقيل فيه: أبو إسحاق الإلبيري، ونَسَبَته كتب التراجم إلى كل من: إلبيرة، وغرناطة، وحِصن العقاب، ويُقال: وُلد في رِباط العقاب ونشأ، ثم قصد إلى المدينة الكبيرة المجاورة، حاضِرةَ الكُورة،(إلبيرة) فتلقّى مزيداً من علومه وثقافته منها، واستقر فيها إلى أن أُخليت المدينة وانتقل أهلها إلى مدينة غرناطة[5].

---

[1] – العاني، محمد شهاب، أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسيّ منذ الفتح حتى سقوط الخلافة، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، العراق، ط1، 2002م، ص14.

[2] – عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، عمان، ط2، 1997م، ص 105.

[3] – ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ،التكملة لكتاب الصلة، تح: عبد السلام الهراس، مكتبة الخانجي، بمصر، ج1، ص136.

[4] – ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، ص132

[5] – الضبي، بغية الملمس في تاريخ رجال الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1203م، ص 210.

ليس الإلبيري شاعراً فحسب، بل كان فقيهاً ورعاً زاهداً نبذ الدنيا وملذاتها، وهذا راجع إلى تنشئته الدينيّة فهو من تلاميذ ابن أبي زمنين (ت399)، وكان في هذه المدّة من جملة الفقهاء الشّبّان يروي عن العلماء، ويأخذ طريقه إلى ممارسة الإقراء والتدريس والرواية والتعليم، وقد جاء شعره صورة حيّة عن شاعر تعلّق قلبه بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فتمثّله في أشعاره، حيث هيمنت الرؤية الشعرية المنبثقة عن الموروث الديني على مساحات واسعة من شعره، وأصبح النص الديني بؤرة مركزية مولدة، كثيرة الإيحاءات والأفكار، ويعود السبب في ذلك إلى أمرين:

الأول: أنَّ الموروث الديني منهلٌ ثرٌّ عذبٌ، والحديث النبوي رافد مهم، وذلك لغنى ألفاظه ومفرداته بطاقات لا تنفد، وأمّا الآخر: فهو تنشئته الدينية كما أسلفتُ، فقد غُرس شعر الزهد في نفسه مبكّراً على يد أستاذه ابن أبي زمنين، الذي حمل عنه أشعاره الزهدية، ومنهجه في الإصلاح والوعظ[1] ، فهو الشاعر الوحيد ذو الأهميّة في غرناطة بني زيري، لم يكن بالطبيعة شاعراً يتغنّى بالحب، أو بالخمر، أو بالترف المصفّى كما عند بقية ملوك الطوائف بل ولا شاعر بلاط مدّاحاً، إنّما كان صدى صادقاً لواقع مدينته غرناطة، كان شاعر المعارضة والزهد والسياسة، ومناهضة نفوذ اليهود[2].

الموروث الديني:

يعدّ التراث الديني مصدراً خصباً للإلهام الشعري عند الشعراء؛ إذ يستمدّون منه نماذج وصوراً وموضوعات مختلفة. والقرآن الكريم _ كان ولا يزال _ في مقدمة المصادر الإسلاميّة التي تعامل معها الشعراء العرب، يليه الحديث النبوي الشريف. لعلّ السبب الرئيس في نزوع الشعراء والأدباء إلى توظيف التراث الديني في شعرهم يعود إلى (خاصيّة جوهريّة في هذه النصوص تلتقي مع طبيعة الشعر نفسه، وهي إنّها ممّا ينزع الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكّره فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كلّ العصور تحرص على الإمساك بنصٍّ إلّا إذا كان دينيّاً أو شعريّاً)[3]. نفهم ممّا سبق أنّ التراث الديني يعزّز القوة الشاعريّة، ويدعم استمرار الشعر وخلوده في الذاكرة.

تشعّ المعاني المستقاة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في شعر أبي إسحاق الإلبيري، كونه أحد أبرز شعراء الزهد في عصر ملوك الطوائف، وقد أضفى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف على شعره رونقاً وجمالاً فنيّاً عن طريق الاقتباس إذ استخدمه الشاعر كتقنيّة أسلوبيّة في شعره ممّا يدلّ على ثقافة الشاعر الدينية، واطّلاعه على التراث العربي الإسلامي بما فيه القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

صور من استلهام الحديث في شعر أبي إسحاق الإلبيري:

يعدّ الحديث النبوي الشريف الرافد الثاني _ بعد القرآن الكريم _ الذي نال نصيبه من العناية والاهتمام لدى شعراء الأندلس وبالتحديد شعراء الزهد، نظراً لما يتمتّع به الحديث النبوي الشريف من مستوى لغوي رفيع، إلى جانب المكانة التي يحتلها كونه مصدر التشريع الثاني في الإسلام، وليس غريباً أن يقتبس الإلبيري من الحديث النبوي الشريف وهو المدرك لمكانة الحديث النبوي في خلق القاعدة الرصينة لثقافة الفرد، فضلاً عن مكانته المقدّسة في نفس رجلٍ تقي ورع متدين، حيث ترك في شعره ومؤلفاته بصماتٍ واضحة المعالم، فقد تشرّب شعره الألفاظ والمعاني الدينيّة التي أغنت خطابه الشعري، وشحنته بدفق إيحائي عميق، يُثري النّص ويرسخه في النفس، ويظهر لقارئ شعر الإلبيري تأثّره

---

[1] –ينظر: ضيف، د. شوقي، تاريخ الأدب العربي–عصر الدول والإمارات بالأندلس، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص354.

[2] –غومث، إميليو غارسيه، مع شعراء الأندلس والمتنبي، ترجمة: د. الطاهر أحمد مكي، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ط7، 2004، ص85.

[3] – فضل، صلاح، إنتاج الدلالة الأدبيّة، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، ط1، 1987، ص59.

بالحديث النبوي وتوظيفه في شعره – وإن قلّ كمّاً عن القرآن الكريم – حيث يستحضره في نصوصه، التي سيطرت عليها فكرتان، فكرة المصير، وفكرة الحياة الدنيا، كما أخذ ينهل من معاني الحديث ما يتماشى وتجربته الشعريّة، وما يخدم نصه من ألفاظ وعبارات.

أولاً: المصير: أي مصير الإنسان بعد الموت، والتي أصبحت فكرته لا تفارق خياله، إنّها تتجلّى من خلال الموت المتكررة أمام عينيه، يراها كل يوم في الأهل والأصدقاء وعامّة الناس، فأكثرَ من ذكر الموت والقبر ووحشته، محذّراً ومنذراً، وكثيراً ما تأتي صورة القبر ملازمة لذكر الموت في شعره؛ لأنّ القبر هو الملاذ والمقرّ، وذكرهُ –غالباً– ما يكون للنصح والوعظ

ونجد في قول الإلبيري إشارات واضحة وصريحة لبعض الأحاديث، كقوله (من الوافر)[1]:

ويَحْمِلُني إلى الأجْداثِ صَحْبِي إلى ضِيْقٍ هُناكَ أو انفِسَاحِ

فأُجزى الخيرَ إنْ قدّمتُ خيراً وشرّاً إنْ جزيتُ على اجتراحي

فقد استوحى الشاعر في بيته الشعري قول الرسول صلى الله عليه وسلم:" القَبْرُ روضة من رياض الجنةِ أو حُفْرة من حُفرِ النَّار"[2].

فوظّف الشاعر لفظة (ضيق) المعبّرة عن (حفرة من حفر النار) ولفظة (انفساح) المعبّرة عن (روضة من رياض الجنة)، لذلك جاء اقتباسه في البيت الشعري متوافقاً مع المعنى الوارد في الحديث بألفاظ أكثر إيجازاً من ألفاظ الحديث.

كذلك قام الشاعر في اقتباسه بتغير الترتيب الوارد في الحديث حيث إنّ الرسول الكريم ذكر الجنة في البداية حرصاً منه على طمأنة المؤمن وإزالة خوفه من الموت، أمّا الشاعر فذكر الضيق الدّال على العذاب في البداية ليظهر شدّة خوفه من الموت وإثارة الرعب في نفس المتلقّي ليستعد للموت استعداداً يقيه هذا العذاب والخوف.

ونجد أن الإلبيري قد وظّف بنية التقابل وما ينتج عنها من تفاعل يساعد في إنتاج المعنى، لذلك نجده يعتمد في البيتين السابقين على التضاد الذي يجسّد صورة الصراع الذي يعيشه الشاعر من خلال لفظتي (ضيق، انفساح)، حيث جعل المفردات المتقابلة متجاورة مكانيّاً في البيت لا يفصل بينهما سوى اسم الإشارة (هناك)، ليحمل هذا التضاد دلالة التباين بين المصير الشقي المتمثّل بالضيق، والسعيد المتمثّل بالانفساح، وتزداد الفكرة وضوحاً من خلال المقابلة الواردة في البيت الثاني، حيث جاء بالعلاقة الشرطيّة لتوضيح جزاء من قدّم خيراً في دنياه، وعقاب من قدّم شرّاً، فكانت هذه المقابلة بمثابة دعوة جادّة لاغتنام الفرصة باستغلال الحياة الدنيا في فعل الخير لنيل الخير في الآخرة.

ويأتي حديثه عن الحساب والعقاب، والجنة والنار لتكتمل اللوحة المروّعة الرهيبة، و من تلك الصور هذه الصورة التي رسمها فيقول (من الوافر)[3]:

---

[1]– الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري، حققه وقدم له د. محمد رضوان الدايه، دار الفكر المعاصر، لبنان، بيروت، ط1، 1976، ص 42.

[2]– الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق ابراهيم عطوه عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ج4، ص 639.

3 – الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري، ص 56.

ولسْتَ تُطيقُ أهْوَنَها عذاباً ولو كنتَ الحديد بها لَذُبْتَا

فقد اقتبس الشاعر من حديث الرسول(صلى الله عليه وسلم):" أهونُ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه".[1]

فهو يستمرّ في اتّخاذ النّص الدينيّ محوراً تعبيرياً، لما يحمله من عمق دلالي وقدسية معيَّنة في نفس المتلقي، فيضع النّص الديني في سياق يضفي لوناً جديداً؛ هو إحساسه بالخوف من عذاب الآخرة.

ويقول أيضاً (من الوافر)[2]:

ولو وافيتَ ربَّكَ دونَ ذَنْبٍ وناقَشَكَ الحِسابَ إذاً هَلَكتَا

إشارة إلى الحديث النبوي الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: من حوسب يوم القيامة عُذّب، فقلتُ: أليس قد قال الله عزّ وجلّ: " فسوف يحاسب حساباً يسيراً" ؟ فقال: ليس ذاك الحساب، إنّما ذلك العَرْض، من نوقش الحسابَ يوم القيامة عذّب)[3].

وعندما يتوجه إلى ربّه ليغفر له ذنوبه، يقول (من الخفيف)[4]:

وإليهِ ضَرَاعتي وابْتِهَالِي في مُعافاةِ شَيبَتِي من جَهَنَّمِ

والواضح أنّ الشاعر يستحضر حديث الرسول الكريم:" إنّ الله يستحي أن يعذّبَ شيبةً شابتْ في الإسلام"[5]. فالشاعر هنا يستوحي معنى الحديث، ويضمنه في سياقه الشعري مع تعديل الصياغة إلى ضمير المتكلم.

ثانياً: الحياة الدنيا: لقد حذّر الإلبيري من الحياة الدنيا ومن فتنها، ورغّب في الآخرة لعلمه بحقارة الدنيا وزيفها، متخذاً من ذمّ الدنيا والتحذير من فتنتها سبيلاً للوعظ، داعياً إلى استغلالها واتّخاذها داراً للعمل والعبادة والتّقوى

ومن صور استشهاده بالحديث النبوي الشريف موضحّاً شدّة حرصه على العلم والعمل به، فيقول (من الوافر)[6]:

4- الترمذي، سنن الترمذي، ج472/1.

[2]- الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري، ص 27 .

[2]- النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، صحيح مسلم، 4 تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي 2204/4

[4]- الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري، ص 58.

[5]- العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ، تحقيق عبدالحميد بن هنداوي، ج278/1.

[6]-الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري، ص 26.

وإنْ أُوتيتَ فيه طويلَ باعٍ وقال النّاسُ إنّكَ قدْ سَبقْتَا

فلا تأمَنْ سُؤالَ اللهِ عَنْهُ بتوبيخٍ عَلِمْتَ فهل عَمِلْتَا؟

هنا إشارة إلى قول الرّسول الكريم:" لا تزول قدما عبدٍ مؤمن يوم القيامة حتى يُسأل عن عُمُرِهِ فيمَا أفناهُ، وعن جسدِه فيما أبلاه، وعن علمِه ماذا عملَ فيه، وعن مالِه من أين اكتسبهُ وفيما أنفقَهُ)[1].

نلاحظ أنّ الشاعر قد اكتفى بأمر واحدٍ من الأمور العدّة الواردة في الحديث، فجاء اقتباسه جزئياً متمثلاً للمعنى الوارد في الحديث، مستخدماً الصيغة الاستفهامية الواردة في الحديث لإعطاء قوله مزيداً من الأهمية والقبول.

والواقع أنّ الشاعر لم يوظّف النّص الدينيّ توظيفاً فنيّاً بقدر ما هو استدعاء لتوكيد الفكرة وتثبيتها، وتذكيراً لذهن المتلقي باستدعاء محفوظه الديني، ففي دعوته إلى اغتنام فرصة الشباب في عمل الخير يحتج لرأيه بحديث الرسول الكريم ﷺ " اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتِك، وصحتك قبل سقمِك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمِك، وغناك قبل فقرِك"[2]، يقول –(من الوافر)[3]:

ولا تَقُلِ الصِّبَا فيه مجالٌ وفكّرْ كمْ صَغيرٍ قَدْ دفنتا !

فهو يحثُّ على اغتنام المرء فترة شبابه وصباه في عمل الخير، لأنَّ الموت يُداهم الصغير والكبير وقد أشار الشاعر إلى جزء من المعنى الوارد في الحديث فقط.

ولا يخفى على أحد هذا التلاحم بين النسيج الأدبي ونسيج الحديث، والذي لجأ إليه الإلبيري ليؤكّد فكرته التي ذهب إليها، والتي هي مستقاة في الأصل من الحديث النبوي، فالرسول الكريم قد حثّ على أن يغتنم الإنسان شبابه، إذ يكفي الإنسان عبرة أنّه في كلّ يوم يشهد دفيناً، فهو لم يخلق ليخلد في حياته، إنّما خلق ليعمرها فترة ويعبرها، والإلبيري أطاع الرسول وعملَ بأمره.

وقد استطاع الشاعر أن يجعل المتلقي منصرفاً إلى التعامل الإيجابي مع النص الديني، وذلك حين يضطره إلى العودة إلى محفوظه لنص الحديث النبوي، دون أن يمدّه به تضميناً كاملاً، ومن ذك قوله (من الوافر)[4]:

ولم تُخلق لِتعمرها ولكن لِتَعْبُرها فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا

يشير الشاعر إلى حديث الرسول الكريم لعبد الله بن عمر(رضي الله عنهما): " يا عبد الله، كنْ في الدنيا كأنَّك غريب أو عابر سبيل، واعدُدْ نفسك في الموتى"[5].

1– الترمذي، سنن الترمذي، ج4/ ص 612.

2– ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت ، دار الكتب العلمية، 1987م، ص 1454.

3– الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري، ص30.

4 – الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري ، ص 29.

5– سنن الترمذي، سنن الترمذي، ج4 ، ص 567.

كما أنّ الحض على القناعة والكفاف من موضوعات شعر الزهد أيضاً، فقد ذمَّ الإلبيري الغنى واتّخذه وسيلة من وسائل التحذير من الدنيا، لأنّ المال عرض من أعراضها الزائلة، ومهما بالغ الإنسان في اكتنازه وادّخاره فإنّه لن ينتفع بشيء منه بعد موته فيقول في تمجيد الكفاف وذمِّ الغنى (من الكامل)[1]:

فَخُذِ الكَفافَ ولا تكُنْ ذا فضْلَةٍ فالفضْلُ تُسْأَلُ عنْهُ أيَّ سُؤَالِ

ودعِ المطارفَ والمطيَّ لأهلِها واقنعْ بأطمارٍ ولُبسِ نِعَالِ

فهُمُ وأنتَ وفقرُنا وغِناهُمُ لا يستقرُّ ولا يدومُ بِحالِ

فهذا النصّ الشعري مقتبس من حديث الرسول الكريم:" من كان معه فضل ظهر فليعدْ به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل زاد فليعُد به على من لا زاد له"[2].

فنلحظ أنّ المعنى الوارد في السياق الشعري منسجمٌ تماماً مع المعنى الوارد في الحديث النبوي، فهو يدعو إلى الزهد في الملبس والمركب، وترك المطارف والمطي لأهلها من الأغنياء، والرضى بالثياب البالية، والمشي بدل الركوب، لأنّ الحال لا يدوم للفقير والغني، فكل ذلك يترك أثره على الجانب الأخلاقي مما يبرز الشخصية في كمالٍ أخلاقيّ متناغم مع كل فضائل الخير والص

ويواصل الشاعر استلهام الأحاديث النبوية في قصائده وتوظيفها توظيفاً يُعطيها بُعداً دلالياً جديداً، مع الاحتفاظ بالدلالة الدينية للنص، فإنّ (استغلال هذه النصوص وتوظيفها جديداً من شأنه أن يخدم النص الإبداعيّ الحاضر)[3]، ويجعله قادراً على أن يحمل بعداً من أبعاد تجربة الشاعر الذاتية، أي أنها تصبح وسيلة تعبير وإيحاء في يدّ الشاعر، يعبّر من خلالها عن رؤياه المعاصرة[4].

ويتابع الإلبيري الغوص في مخزونه الثقافي ليطالعنا باقتباس آخر في قوله (من المنسرح)[5]:

وذي غنى أوهَمَتْهُ هِمّتُهُ أنّ الغِنى عنهُ غيرُ مُنفَصلِ

فَجرَّ أذيــالَ عُجبِهِ بَطَراً واختالَ للكِبْرِياءِ في حُلَلِ

بَزَّتهُ أيْدي الخُطوبِ بِزَّتَهُ فاعتاضَ بعدَ الجَديدِ بالسَّمَلِ

[1] – الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري، ص 46، المطارف: جمع المطرف(بكسر الميم وضمّها) وهو رداء أو ثوب من الخزّ، أطمار: جمع طِمر: وهو الثوب الخلق البالي.

[2] – النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، صحيح مسلم، ج3، ص 1354.

[1] – الكوفحي، إبراهيم، محنة المبدع: دراسات في صياغة اللغة الشعرية، منشورات أمانة، عمان، الأردن، د.ط، 2007، ص 86

[4] – زايد، علي عشري، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، دار الفصحى، القاهرة ، ط4، 2002، ص 128.

3 – الإلبيري، ديوان الإلبيري، ص 137، 138.

فلا تثقْ بالغنى فآفَتَهُ الـ فقرُ، وصرفُ الزّمانِ ذو دُوَلِ

كفى بِنَيلِ الكَفافِ منهُ غِنًى عنهُ فَكُنْ فيهِ غيرُ مُحتَفِلِ !

إنَّ مجموع هذه الأبيات تشكّل خلاصة رأي الشاعر في الثروة الماديّة، من منظور إسلامي يعبِّر عن المرجعيّة الفكريّة للشاعر، والتي تجلّت في زهده الثروة الماديّة كونها سبب شرور الإنسان في حياته ومماته، موظّفاً قول رسول الله ﷺ : " يَقُولُ ابنُ آدَم: مَالي! مَالي! وَهَل لَكَ يَا ابْنَ آدمَ مِنْ مالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فأمضيت "[1] ، وما ورد عن السلف في التعريض بالمال، فقد روي أنّ رجلاً نال من أبي الدرداء وأراه سوءاً، فقال أبو الدرداء: " اللهمّ من فعل بي سوءاً فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله"[2].

فقد كرّس الشاعر شعره ليكون وسيلة تربوية وخلقية تكشف عن حقيقة الوجود الإنساني الذي ينبني على العلوم الشرعية، والتي بفضلها يرتقي الإنسان ويتخلّص من الإغراءات المادية الزائفة والزائلة، إلى صفاء الرّوح بالإيمان بالله والإخلاص له ابتغاء مرضاته.[3]

ففي معنى قوله ﷺ " الدُّنيا سجن المُؤمنِ وجنَّة الكافر "[4] يقول أبو إسحاق الإلبيري في ذمِّه للدّنيا والدّعوة إلى الإعراض عنها لأنّها فانية مستمدّاً ألفاظه ومعانيه من حديث الرسول الكريم، فيقول (من الوافر)[5]:

فليْسَت هذه الدّنيا بشيءٍ تَسُوؤُكَ حقبَةً وتَسُرُّ وَقتَا

وغايتُها إذا فكَّرْتَ فيها كفيْئِكَ أو كحلْمِكَ إنْ حَلَمْتا

سُجنتَ بها وأنتَ لها مُحِبٌ فَكيفَ تَحِبُّ ما فيهِ سُجِنْتَا

وفي دعوته الإنسان إلى حفظ اللسان وحسن الكلام في دنياه يقول(من الكامل) [6]:

لكن رأيْتُ نبيَّنا قَدْ عابَهُ من كلِّ ثرثارٍ وأشْدَقَ شاعِرِ

4-النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، صحيح مسلم، ج 94/4.

5-الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، ج4، ص80.

1-عويس، محمد، قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1986، ص 67

2-الترمذي، سنن الترمذي، ج562/4.

3-الإلبيري، ديوان الإلبيري، ص 29.

4- الإلبيري، أبو إسحاق، ديوان الإلبيري، ص 80.

هذا البيت يدلّ دلالة واضحة على إعادة الشاعر لكتابة النص الغائب وتوظيفه توظيفاً فنيّاً، فقد أشار الشاعر إلى حديث الرسول الكريم: "... إنّ من أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون المتشدّقون والمتفيقهون: قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيقهون؟ قال: المتكبرون" [1]، فهو يتعجب من المؤمن المتشدّق اللّسن الذي يُكثر الكلام دون فائدة، أو حساب لما سيحدثه من أثر في الآخرين.

إنّ الاقتباس الإشاري ولّد دلالة نفسيّة تدلّ على عمق التجربة الشعريّة للشاعر في استرفاد النّص بمزيد من المشاعر والأحاسيس، وكشف عن ثقافة الشاعر الدينيّة وتمكّنه من إيرادها في شعره، وبهذا يكون الاقتباس قد أدّى إلى تلوين الأسلوب الشعري وإضفاء الرونق اللفظي الذي يزيد من جمالية النص الأدبي، وأسهم في نتاج الدلالة السياقية كونه مثّل إحدى البؤر الأساسيّة لاستقطاب المعنى بل والكشف عنه وتوضيحه، وأثّر تأثيراً طيّباً في النّفس وأحدث الانفعال العاطفي بوصفه انفعالاً تعجز اللغة الاعتيادية أو الأسلوب البسيط عن تصويره.

نجد أنَّ الشاعر قد أبدع في معالجة الموضوعات التي تناولها في أشعاره، وذلك من خلال ما استند إليه من الأحاديث النبوية، فاهتمامه بالموروث الديني غذّى شعره وأضفى عليه حسَّاً جمالياً.

خاتمة:

يمكننا القول:

إنّ استلهام أبي اسحاق الإلبيري واقتباسه من الحديث النبوي الشريف يعكس مدى تأثّره بالكتاب العزيز لفظاً ومعنى، فقد وجد في السنّة النبوية المطهّرة خير معين على تأكيد معانيه وأفكاره، واستمدّ بعض إبداعاته من أحاديث الرسول الكريم كما أنه أراد من خلال توظيفه الأحاديث إحياء التراث الديني الذي انطمست معالمه في المجتمع الأندلسي إثر شيوع موجات العبث واللهو من جانب، ومن جانب آخر تذكير الناس وتنبيههم بما يجب عليهم مراعاته والمواظبة عليه من أوامر ونواهي دينية تضمن سعادة الإنسان في الدارين ولاسيما أنّ الأحاديث النبوية تحوي على أعلى المثل الأخلاقية والسلوكية لأبناء البشر.

كما نلاحظ بأنَّ السنة النبوية تعدُّ أساساً قوياً من أسس ثقافة الشاعر الدينية والتي تشكّل انطلاقة الشاعر في خطابه الديني، ومما لا شكّ فيه أنَّ إلحاح الشاعر على توظيف السنة النبوية ودمجها بأليات الخطاب حقق فائدتين إحداهما: تكثيف لغة الخطاب الديني من خلال السنّة بعدّها التشريع الثاني بعد القرآن الكريم.

والآخر: شحن النص بدلالات معنوية. الهدف منها إيصال الفكرة إلى المتلقي، فضلاً عن ذلك فإنَّ تضمين الحديث يمنح النص قوة عاطفية تؤطّر الخطاب الديني بمزيد من التأثير.

5-الترمذي، سنن الترمذي، ج3، 249.

المصادر والمراجع:

1-ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي. *التكملة لكتاب الصلة*، تح: عبد السلام الهراس، مكتبة الخانجي، بمصر، ج1، عدد الصفحات 466.

2-ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي. *المغرب في حلى المغرب*، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، عدد الصفحات 991.

3- ابن ماجه. *سنن ابن ماجه*، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت ، دار الكتب العلمية، 1987م، عدد الصفحات 1568.

4- الإلبيري، أبو إسحاق. *ديوان الإلبيري*، حققه وقدم له د. محمد رضوان الدايه، دار الفكر المعاصر، لبنان، بيروت، ط1، 1976، عدد الصفحات 160.

5- الترمذي، محمد بن عيسى. سنن الترمذي، تح: ابراهيم عطوه عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط1، عدد الصفحات 1568.

6-جدعان، فهمي. *نظرية التراث*، دار الشرق، عمان، ط1، 1985، عدد الصفحات 185.

7- زايد، علي عشري. *عن بناء القصيدة العربية الحديثة*، دار الفصحى، القاهرة ، ط4، 2002، عدد الصفحات 241.

8- الضبي. *بغية الملمس في تاريخ رجال الأندلس*، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1203م، عدد الصفحات 734.

9-ضيف، د. شوقي. *تاريخ الأدب العربي-عصر الدول والإمارات بالأندلس*، دار المعارف، القاهرة، مصر، عدد الصفحات 552.

10- العاني، محمد شهاب، *أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسيّ منذ الفتح حتى سقوط الخلافة*، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، العراق، ط1، 2002م، عدد الصفحات 276.

11- عباس، إحسان. *تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين*، دار الشروق، عمان، ط2، 1997م، عدد الصفحات 416.

12- العجلوني، إسماعيل بن محمد. *كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس*، تح: عبدالحميد بن هنداوي، الناشر: مكتبة القدسي، 1351هـ، ج1، عدد الصفحات 532.

13-عويس، محمد. *قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي*، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1986، عدد الصفحات 254.

14- الغزالي، أبو حامد. إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، ج4، عدد الصفحات 1963.

15- غومث، إميليو غارسيه. *مع شعراء الأندلس والمتنبي*، ترجمة: د. الطاهر أحمد مكي، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ط7، 2004، عدد الصفحات 254.

16- فضل، صلاح. *إنتاج الدلالة الأدبية*، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، ط2، 1987م، عدد الصفحات 332.

17- الكوفحي، إبراهيم. *محنة المبدع: دراسات في صياغة اللغة الشعرية*، منشورات أمانة، عمان، الأردن، د.ط، 2007م، عدد الصفحات 197.

18- النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري. *صحيح مسلم*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، عدد الصفحات 4491.